مقدمة الترجمة

ليس هناك اليوم من ينكر أهمية الميول الجنسية فى حياة النـاس جميعـاً، وإن اختلفـوا فـى تحديد مقدار هذه الأهمية ومبلغ ما تؤدى إليه تلك الميول فى حياة الصغار والكبار مـن مختلـف نواحيها. وليس هناك، علـى مـا نرجـو، مـن ينكـر أن تنظيـم تلـك الميـول وتهذيبـها مـن أهـم الواجبات التى ينبغى على كل من تتصل حياته أو عمله بالنشء أن يقوم بها.

ونحن فى زمن تتغير فيه الأوضاع وتتبدل فيه المثل، وتكثر فيه المؤثرات الخارجية التى تفد علينا من الحضارات والثقافات الأخرى، فيؤدى هذا كله إلى بلبلة فى القواعـد والأوضـاع التـى كانت الأجيال السابقة تنشأ عليها والتى كانت حياة الأفراد والجماعات تنتظم وفقـاً لهـا. وقـد لا يكون هناك فى حياة الناس اليوم من جانب أكثر بلبلة وأشد اضطرابـاً، نتيجـة لذلـك كلـه، من الجانب الجنسى بمعناه العريض الشامل.

ولا يقتصر خطر الميول الجنسية وأهميتها على ما نلمسـه فـى الحيـاة اليوميـة مـن مظاهرهـا ونتائجها، بل إن ما يخفى من آثارها على صحة الناس البدنية والنفسـية لأخطـر شـأناً وأبعـد غوراً، وإن ما يترتب على هذه الاضطرابات ليتطلب علاجاً يتعسر الحصول عليه، ويطول مـداه إن أمكن الحصول عليه. وإذا كان من ناحية يصدق عليها القول بـأن الوقايـة خـير مـن العـلاج فهى هذه الناحية التى تتصل بالحياة الجنسية، وما تنطوى عليه من نـواح بدنيـة ووجدانيـة، وما يترتب عليها من نتائج عائلية واجتماعية.

وإذا كان هناك من رجل واحد كان له من الشجاعة وثاقب النظـر مـا أتـاح لـه مـن الناحيـة العلمية أن يوقظ الناس من غفوتهم أو تغافلهم عن الجنس وأهميته، فهو العلامة سيجمند فرويد الذى اهتدى إلى أصول التحليل النفسى وبدأ استخدامه فى العلاج؛ والذى وفق فى تفهم أعماق النفس الإنسانية إلى ما لم يوفق إليه أحد من قبل. ولقـد لاقـى فرويـد فـى سـبيل الإعـلان عـن رأيه، كما لاقى غيره من المحللين وغير المحللين الذين عملوا على تنويـر النـاس عـن الحيـاة الجنسية، عنتاً وشدة ومناهضة طال أمرها وتأجج أمراها حيناً، كى تخلف وراءهـا ضروبًـا مـن الفهم والسلوك فى هذه الناحية تصل فى كثير من الأحيان إلى حد من الغفلة أو الميوعة التى قد تؤدى إلى ألوان من الأذى أشد خطورة من الجهالة الأولى. ولا يزال كثـير ممـن يزعمـون المعرفـة لا يدركون من فرويد إلا أوائل ما كتب عـن الجنـس، كأنـه لم يكتـب إلا عنـه ولم يكتـب عنـه إلا أوائل ما كتب؛ بل هم يفهمون ويتحدثون عن ذلك على غـير مـا أرادهـم الرجـل أن يفـهموا أو يتحدثوا أو يكتبوا.

وكثير من الناس لا يزالون، من جراء هذا، فى حيرة من أمرهم لا يعرفون وجه الصواب عن الجنس أو كيفية التصرف بازاء ما يصدر عنه فى سلوك أبنائهم أو من يشرفون عليهم من نشء. ومن هنا اشتدت الحاجة إلى مثل هذا الكتاب، لا فى اللغة العربية وحدها بل فى اللغات الأخرى.

غير أن هذا ليس كتاباً مباشراً فى التحليل النفسى – نظرياته أو العلاج به، بل هو كتاب استوحى من علوم الحياة والتربية والتحليل النفسى خير أصولها والتمس أحسن الوجوه لتطبيقها والإفادة منها. والواقع أن أول معرفة لكاتب هذه الكلمة بهذا الكتاب، كانت حين دعى أيام كان فى لندن، للتحدث إلى شباب أحد الأندية عن مشاكلهم الخاصة بصفته من المشتغلين بعلوم النفس والتحليل النفسى. وذهب يلتمس الرأى عند «أنّا فرويد» وهى من هى فى الطليعة من المشتغلين بالتحليل النفسى وتطبيقه فى ميادين التربية. فأشارت عليه بهذا الكتاب الذى لم يكد يظهر حتى تلقفته الأيدى ونفدت منه الطبعة بعد الطبعة. ولقد كان حكمها والحق صائباً سديداً. ذلك لأنه على كثرة ما كتب عن هذه الناحية فلعل كتابًا لم يصل فى علاجها إلى مثل ما وصل إليه هذا الكتاب من نجاح ورصانة ومن توفيق وسداد فيما يقدمه من حديث إلى الآباء والأطباء والمعلمين ورجال الخدمة الاجتماعية من رأى ناضج مفيد.

ولا عجب فى ذلك فالمؤلف «سيرل بيبِّى» رجل تمرس بالعلم والخبرة فى ميدان البحث والتعليم أمداً طويلاً. تخصص فى علوم الأحياء وتوفر على دراسة علوم النفس والتربية، كما يدل كتابه على حسن فهمه وإفادته من كتب التحليل النفسى. ثم اشتغل خبيراً فى التربية للمجلس المركزى للتربية الصحية فى إنجلترا. وتطلب منه عمله أن يلقى وأن ينظم آلاف من المحاضرات والدراسات عن المشاكل الجنسية فى كافة نواحى تلك البلاد. حتى انتهى به الأمر أخيرًا إلى الانضمام إلى هيئة التدريس بمعهد التربية بجامعة لندن.

وإذا كانت الحاجة الملحة الشديدة هى التى هدتنا إلى هذا الكتاب، كما هدت إلى تأليفه من قبل، فإن مثلها هو ما دفع إلى ترجمته. فقد تبين للأستاذين اللذين قاما بترجمته، وهما ممن يشرفون على إعداد المعلمين بجامعة إبراهيم، أن الناحية الجنسية وواجب المربى نحوها من الموضوعات التى تشغل شباب المعلمين وتجبههم منهم حلاً، وأنها من الأمور التى لا مهرب منها رغم ما يتردد حولها من نقاش وما يلزم فيها من الاستنارة والإيضاح. ومن هنا كان ترحيبهما بهذا الكتاب وكان أن أقدما على ترجمته رغم ما استلزمه ذلك من شدة الجهد وكثرة التوفر، حتى خرج الكتاب، وقد بقيت له طلاوته وسلاسته، دقيقاً أميناً إلا ما استلزمه الأمر من تغيير عبارة هنا أو اسم أو مثل هناك.

وليس بهذا الكتاب، فى جملته، ما يمكن أن يفجأ أحدًا من الذين يتصلون بالنشء – أولئك الذين يستطيعون أن يفتحوا أعينهم وآذانهم؛ أو أن يفجأ واحداً يستطيع أن يواجه نفسه

ويعترف، ولو بينه وبين نفسه، أن المسائل التى يعرض لها المؤلف ليست من نسيج خياله إنما هى من صميم الحياة ومشاكلها الواقعية. والآراء التى يقول بها صاحبه، فى جملتها، ليست بالآراء المتطرفة أو المستحدثة على جراءة ما يقول به أحياناً وشدة طرافته وجدة ما يدعو إليه.

ولقد يقال إن ما يدعو إليه المؤلف إنما ينفع فى بيئة وحضارة غير البيئة أو الحضارة التى نعيش فيها. غير أن الواقع هو أن لب ما يدعو إليه – بصرف النظر عن تفاصيله – يتفق وطبيعة الإنسان، على قدر ما نعرفها اليوم، فى أى صقع أو أية بيئة. بل الواقع أن كثيراً جداً من الآراء أو الإرشادات التى يقول بها ليست جديدة على الشرق، بل إنها قد عرفت هنا قبل أن تعرف هناك. ولولا الظروف التى أصدر فيها هذا الكتاب، وضيق الوقت وقصور الجهد، لأوضحنا هذا الذى نذهب إليه بما يؤيده من الأسانيد التى يتيسر أن تستقى من كتب الشريعة والتربية التى عرفت عندنا قبل أن نعرف الغرب أو نتصل به.

ومهما يكن من أمر فإنّا لنرجو أن ينفع هذا الكتاب وأن يفيد، فإن أدى إلى نقاش فإنا لنرجو أن يكون النقاش طليقًا عادلاً بعيدًا عن الهوى لا يستهدف إلا خير الناشئين الذين نرجو أن تتيح لهم أيامهم خيراً مما أتاحت لنا.

القاهرة، يناير ١٩٥٢ م

إسحق رمزى

المحلل النفسى بعيادة لندن سابقًا

دكتوراه فى علم النفس من جامعة لندن

عضو الجمعية البريطانية للتحليل النفسى

أستاذ علم النفس المساعد بجامعة إبراهيم